

مقدمة

فى ضرورة البحث

أصبحت الرواية فى منتصف القرن العشرين أكثر أزياء التعبير الأدبى انتشاراً. وبينما كانت فى الماضى وسيلة للتسلية وإشباعاً سهلاً للمخيلة أو للعاطفة، أصبحت تعبر اليوم عن القلب والسرائر والمسئوليات الفنية، التى كانت فيما مضى موضوع الملحمة والتاريخ والبحث الأخلاقى والتصوف والشعر فى جانب منه. كما أن الرواية نظراً لسعة توزيعها تمثل من الناحية الاجتماعية أداة الاتصال الأدبى بين الجماهير المتفاوتة. والرواية تؤمن لكل مجموعة فكرية قوتها المفضل: فهى تقدم للأذهان وضعية الدراسات الاجتماعية، وتقدم للنفس الحساسة ألعاب التحليل النفسى المرفهة والمخيفة والغور إلى الأعماق البعيدة، بل هى تقدم لأصحاب الخصومات الجدلية أنفسهم مناسبة للانغماس فى كثير من الحوادث اليومية. كما تقدم للإنسان الذى يشعر بمصيره تساؤلاً دائماً عن الوضع البشرى أو إنسانية العالم. كما تقدم للجميع المتع الطفولية التى تثيرها القصة المؤثرة والمغامرة والحكاية. إن الرواية تقوم بدور الكاهن المعرف، والمشرف السياسى، وخادمة الأطفال، وصحفى الوقائع اليومية، والرائد التربوى، ومعلم الفلسفة السرية. وهى تقوم بهذه الأدوار كلها فى فن عالمى، يهدف إلى أن يحل محل الفنون الأدبية جميعاً، ويمكن أن يكون - فى أيامنا هذه - شكلاً معممًا للثقافة^(١).

من هنا كانت محاولة التأريخ الفنى للرواية المصرية - فى رأينا - إنما هى محاولة لكشف الضوء عن مجال من مجالات تاريخنا الأدبى الحديث، يجعلنا أكثر إدراكاً لواقعنا القريب، وما يلقى علينا من مسئوليات فكرية وجمالية. إن الرواية وتاريخها لا تكشف عن مسار فن أدبى فحسب، بل تُبرز الوجدان الوطنى، وتكشف مشاكل التغيير، وتوضح مسار الناس وقضاياهم الفكرية والاجتماعية. كما أنها تنمُّ من حيث

(١) يُراجع تاريخ الرواية الحديثة: ألبير ريس، ترجمة جورج سالم - دار الفكر، بيروت سنة ١٩٦٧، ص ٥، ٦ بتصرف.

الإبداع الفنى عما وصل إليه الأديب العربى فى مصر تأصيلاً لثقافته القومية واستيعاباً للتراث العالمى فى الفن شكلاً ومضموناً.

ومع أهمية هذا الفن على مستوى الثقافة العالمية، وما أصبح له من تراث كبير ضخم فى تاريخنا الأدبى المعاصر، لم يحظ بدراسة شاملة تؤرخ له كفن أدبى من نشأته حتى اللحظة الآتية المعاصرة. وإذا ما نظرنا إلى تراثنا النقدى الأكاديمى وغيره فإننا نتبين صدق هذه المقولة فما صدر فى هذا المجال يمكن حصره فيما يلى:

١ - الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث: محمود شوكت

هذا الكتاب عبارة عن رسالة نال بها مؤلفها درجة الدكتوراه فى الآداب سنة ١٩٤٩ - ولا شك أن مؤلفها بمحاولته تتبع النشاط القصصى كله: من قصص مترجم ومؤلف، اجتماعى وتاريخى، ثم سحب المصطلح على المسرح الثرى والشعرى، كل هذا أوجب عليه بحكم اتساع المساحة وعدم الدقة فى استخدام المصطلح أن يكون بحثه نوعاً من إلقاء الضوء على مجال بكر، لم تسبق دراسته. ولا شك أن المؤلف قدم أول محاولة لتتبع تطور فن الرواية من الترجمة إلى التمصير ثم التأليف. كما أوضح أثر التراث القديم فى نشأة الرواية خاصة ألف ليلة وليلة، ثم أثر المقامة فى القصص المصرى الحديث، وبرغم أننا نجد عنده كثيراً من الملاحظات الجزئية الذكية على ما درس، فإن دراسته لا تقدم خطأ بيانياً متكاملًا للرواية كفن أدبى له مساره الخاص، كما لم يحاول أن يربط هذا النوع الأدبى بظروف المجتمع المصرى وحاجاته الفكرية.

٢ - فجر القصة المصرية: يحيى حقى

صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٠ فى سلسلة المكتبة الثقافية. وقد حاول المؤلف فيه - بذكاء - أن يوضح ملامح العصر الذى ظهر فيه فن القصة فى مطلع القرن العشرين سواء من الناحية الاجتماعية أو الفنية، ويقف وقفات ذكية عند رواية «زينب» باعتبارها النموذج الأول المتفق عليه من حيث فنية الرواية. ويؤرخ بعد ذلك لمحمد تيمور واهتماماته المختلفة فى المسرح والقصة، كما يلقي كثيراً من الضوء على إنتاج عيسى عبيد وتوفيق الحكيم، ولاشك أن أهم فصل فى هذه الدراسة هو ما كتبه عن «المدرسة

الحديثة» فى القصة، وهو يعد أهم وأثرى مرجع لدراستها.

والكتيب برغم موضوعية النظرة وشموليتها فى التناول - وأنه إذا ما استثنينا ما كتب عن هيكل والحكيم- فإنه أميل إلى الدراسة والتأريخ للقصة القصيرة لا للرواية، بل إنه لم يقف فى أثناء حديثه عن محمود طاهر لاشين وعيسى عبيد ليتناول روايتهما «حواء بلا آدم» (١٩٣٤) و«ثريا» (١٩٢٠)، بل لقد فاتته الحديث عن محاولة عمه محمود طاهر حتى «عذراء دنشواى» (١٩٠٦). ومع هذا تبقى للكتاب قيمته النقدية والأدبية باعتباره صادراً عن ناقد وأديب معاصر لما كتب. . فالكتاب إذن شهادة فنية على العصر.

٣ - دراسات فى الرواية المصرية: على الراعى

هذا الكتاب تجميع لمقالات كتبها المؤلف بين سنتى ١٩٥٦ - ١٩٦٢ عن أعمال مختلفة فى مجالات الرواية، تبدأ من «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي (١٩٠٥)، وتنتهى بثلاثية نجيب محفوظ (١٩٥٦)، ويدرس الراعى فى هذا الكتاب عشر روايات تعدُّ - بحق - من أهم نصوص إنتاجنا الروائى الحديث، والكتاب برغم عمقه فى دراسة هذه الأعمال وتحليلها، فإنه يدرس كلا منها على حدة - دون محاولة لربط هذه الأعمال ببعضها أو إيجاد علاقة فنية أو فكرية بالظروف الاجتماعية التى حدثت إبان ظهورها.

٤ - تطور الرواية العربية الحديثة، عبد المحسن بدر

الكتاب محاولة جادة لا لتأريخ الرواية العربية فحسب، وإنما هناك جهد جاد مخلص للبحث عن الأنواع التى أسهمت فى ظهور الرواية الفنية مثل الرواية التعليمية، ورواية التسلية والترفيه. وعلى هذا فقد تتبع المؤلف بأناة ومنهجية منضبطة نشأة الرواية وتطورها بين سنتى ١٨٧٠، ١٩٣٨. وهكذا تقف هذه الدراسة عند أعمال رواد

الرواية، وتبقى بعد ذلك حوالى أربعين سنة من عمر الرواية تحتاج إلى تأريخ ودراسة(*) .

وقد لاحظ الباحث فى أثناء دراسته للدكتوراه «صورة المرأة فى الرواية المعاصرة» أن الرواية المصرية تحتاج إلى نوعين من الدراسة والبحث، حتى يمكن رسم صورة صادقة لمسارها التاريخى :

الأولى - تأريخ للرواية يبين مراحلها الفنية ومدارسها الأدبية وعلاقة الرواية بالواقع، الذى تنعكس عنه سواء من حيث المضمون الفكرى أو القيم الجمالية .

الثانى - عمل بليوجرافى دقيق يقوم بعملية مسح شامل للروايات الفنية التى صدرت فى مصر، حتى تكون وثيقة صادقة لأية دراسة فى مجال الرواية . وسوف نصدرها مع الجزء الثانى - من هذا الكتاب - بإذن الله .

انطلاقاً من هذا كله كانت الحاجة إلى الدراسة التى نقدمها، لتسدّ فراغاً لمسنا ضرورة بحثه وإلقاء الضوء عليه، أى أن أهمية الرواية كفن أدبى وجماهيرى - إن صح هذا التعبير - كان دافعنا إلى هذه الدراسة . ونظراً لاتساع الرقعة الزمنية للبحث لم يكن هناك مفر من أن نقسم هذه الدراسة إلى جزئين :

(*) ثمة دراسات أخرى صدرت فيما بعد عن الرواية فى مصر ومن أهمها :

- طه وادى : - صورة المرأة فى الرواية المعاصرة (١٩٧٣)

- دراسات فى نقد الرواية (١٩٨٩) .

- الرواية السياسية (١٩٩٦) .

- شفيق السيد: اتجاهات الرواية المصرية (١٩٧٩) .

- أحمد هيكل : الأدب القصصى والمسرحى فى مصر (١٩٦٨) .

- محمد حسن عبد الله : الواقعية فى الرواية العربية (١٩٧١) .

- أحمد الهوارى : البطل المعاصر فى الرواية المصرية (١٩٧٩) .

- فاطمة موسى : فى الرواية العربية المعاصرة (١٩٧٢) .

- سيزا قاسم : بناء الرواية (١٩٨٣) .

- عبد الفتاح عثمان : بناء الرواية (١٩٨٩) .

الجزء الأول: تناول تطور الرواية حتى ثورة ١٩٥٢، وهو الذى نقدمه فى هذا البحث.

الثانى: يتناول اتجاهات الرواية بعد سنة ١٩٥٢: وهو ما نأمل أن نقدمه قريباً بإذن الله.

وعلى هذا فقد فرضت ضرورة البحث منهج دراسته، ومن هنا كانت محاولتنا رسم خط بيانى لتطور الرواية معتمدين على الرواية نفسها. وبرغم إيماننا بضرورة ربط الظاهرة الفنية بالواقع الذى تعكسه وتصوره، فإننا سنحاول ربط تاريخ الرواية - بالدرجة الأولى - بالرواية نفسها، ونخرج من ذلك بما نرى من دلالات اجتماعية وفكرية وفنية.. على ضوء المنهج الاجتماعى فى النقد.

وتقع هذه الدراسة فى ثلاثة أبواب، يمثل كل منها مرحلة فى تاريخ الرواية الحديثة:

الباب الأول: فجر الرواية: ويقف فى البداية عند العوامل المؤثرة فى نشأتها مؤكداً صلة الرواية كفن بتراثنا القصصى والشعبى من حيث المضمون، وإن اختلفت عنه فى بعض عناصر الشكل، ثم يقف بعد ذلك عند أهم الأعمال الأدبية المرهضة لنشأة الرواية حتى نصل إلى رواية زينب لمحمد حسين هيكل ١٩١٤، ثم يبحث فترة الجزر والنضوب فى الرواية حتى سنة ١٩٣٣. ويوضح كيف أن القصة القصيرة والمترجمة والمعربة خاصة عند المنفلوطى والزيات ومحمد تيمور، قد سدت فجوة الفراغ الأدبى فى هذه المرحلة.

الباب الثانى: مرحلة التطور والتأصيل: تبدأ من سنة ١٩٣٣ حيث ظهرت رواية «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وتنتهى عند سنة ١٩٤٤، حين توقف كثير من رواد الرواية، وأذنت سنة ١٩٤٥ بميلاد كتاب جدد فى المذهب الرومانسى والواقعى، يتميزون بسمات مغايرة فنياً عمن سبقوهم فى الشكل والمضمون.

وفى نهاية الباب يوضح البحث السمات العامة لفن الرواية فى هذه المرحلة التى تمثل ازدهار الرواية الرومانسية، ثم عجزها - بعد ذلك - عن مواكبة حركة المجتمع وتطلع الفئات الصاعدة، مما أدى إلى أن تظهر بعض الأعمال المرهضة لنشأة المذهب الواقعى فى الرواية، الذى سائر المذهب الرومانسى فى هذه المرحلة، وأنتج أعمالاً فنية ناضجة برغم قلتها العددية بالنسبة للرواية الرومانسية.

الباب الثالث: مرحلة النضج والتخصص: يُلاحظ أن الرواية - برغم تطورها في المرحلة السابقة- كان كتابها بالنسبة للرواية (هواة) في الغالب؛ أما في هذه المرحلة فقد تخصص في كتابة الرواية معظم من شارك فيها. وقد سارت الرواية في هذه المرحلة في تيارين: أحدهما مقلد للرومانسية كما ظهرت عند رواد الرواية.

وثانيهما مجدد يرسى دعائم المذهب الواقعي في الرواية.

ومن هنا انقسم الباب الثالث إلى فصلين:

الأول عن: الرواية الواقعية: حيث يتتبع مراحل تطورها ويقتصر على دراسة أعمال نجيب محفوظ التي سبقت الثلاثية. وفي النهاية يقدم مجملًا لسمات الرواية الواقعية من حيث الشكل والمضمون.

الثاني عن: الرواية الرومانسية: يوضح في البداية سر استمرار الرومانسية في الرواية، وأهم كتاب هذه المرحلة: محمد عبد الحليم عبد الله - عبد الحميد جودة السحار - يوسف السباعي - محمد فريد أبو حديد. وغيرهم. وبعد تتبع الإنتاج الروائي لكتاب هذا التيار يوضح البحث سمات الرواية عندهم.

وفي النهاية يقدم البحث تقييمًا عامًا للرواية برافديها في هذه المرحلة، استشرافًا لطبيعتها في المرحلة القادمة بعد الثورة التي سوف نقوم بدراستها، تمهيدًا لإصدار الجزء الثاني من مؤلفنا هذا عنها- إن شاء الله.

ومع سمو الدافع لهذه الدراسة وإحساسنا الشديد بضرورتها - كما أوضحنا - فإننا لا نستطيع أن نزعم أننا قد وفينا هذا الموضوع حقه من الدراسة، وإنما هو محاولة جادة لدراسة قطاع من تاريخنا الفكري، تسهم في إثراء اللحظة الآنية وبناء مستقبل مشرق لا تحده آفاق لمصرنا العربية العزيزة.

والله أسأل أن يهدينا جميعًا إلى طريق الخير، والرشاد، وأن يعم الخير أرجاء البلاد، وأن تنتشر المعرفة بين العباد.

طه وادي

أكتوبر ١٩٧١